شعرية الثورة في كتابات "الشيخ عبد الحفيظ زواوي
قصيدة "الحلف الأطلسي"أنموذجا

The Poetics of Revolution in the Writings of Sheikh Abdelhafid Zawawi

The Poem 'The Atlantic Alliance' as an example

خضور وليد[1] *

[1]جامعة برج بوعريريج،(الجزائر)، walid.khoudour@univ-bba.dz

مخبر وحدة التكوين في نظريات القراءة ومناهجها جامعة بسكرة

تاريخ الإيداع: 2025/04/01 **تاريخ المراجعة**: 2025/06/22 **تاريخ النشر**: 2025/07/01

ملخص:

تحاور هذه الورقة البحثية نصا من الشعر الشعبي الثوري للشاعر الشيخ"عبد الحفيظ زواوي"ضمن مقاربة نقدية بينية تنطلق من مفهوم الشعرية بوصفها مقولة بنيوية لتنفتح على الدراسات الثقافية من خلال تفعيل بعض الإجراءات النقدية الثقافية،بحثا عن رؤية تحليلية قادرة على تحليل هذه النصوص الشعرية الثورية التي كتبت في سياقات ثقافية وتاريخية استثنائية،ولم تحظى بالقدر الكافي من الاهتمام النقدي الأكاديمي،كما أنها بقيت أسيرة التقديم التاريخي التوثيقي ولم تعامل بوصفها نصوصا أدبية لها خصوصياتها الابداعية،وضمن هذا التصور نناقش ثقافية الشعر الشعبي وعلاقته بالثوابت الوطنية الهوية وقدرته على بناء وترسيخ ثقافة المقاومة في المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحية: الشعر الشعبي،قصيدة الحلف الأطلسي ،شعرية الثورة،الهوية،ثقافة المقاومة

***Abstract**: This research paper discusses a text of revolutionary popular poetry by the poet Sheikh Abdelhafid Zawawi within an interdisciplinary critical approach that starts from the concept of poetics as a structural statement to open up to cultural studies through the activation of some cultural critical procedures, in search of an analytical vision capable of analyzing these revolutionary poetic texts that were written in exceptional cultural and historical contexts, and did not receive sufficient academic critical attention, as they remained captive to the historical documentary presentation and were not treated as literary texts with their own creative characteristics, and within this concept we discuss the culture of popular poetry and its relationship to the constants of national identity and its ability to build and consolidate the culture of resistance in Algerian society.*

***Key words**: Popular Poetry, Atlantic Alliance Poem, Poetics of Revolution,Identity, Culture of resistance*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

تحتفظ الذاكرة الجزائرية جيدا بأصوات البنادق والمدافع التي كانت تحاصر القرى والمدن،وتنتهك صمت الجبال،كما أنها تعريف كثيرا تكبيرات البطولة وزغاريد الشهادة وأصوات الأنين،وبكاء الأرامل والأيتام،إنها ذاكرة صوتية عتيّة على النسيان،أرخت لأصوات و لملاحم وبطولات كتبت تفاصيلها في متون المؤرخين،ونصوص القصاصين،وكلمات الشعراء،فحازت الخلود ثورة غيرت مجرى التاريخ،وكسرت منطق التفوق وأبانت على ما تصنعه إرادة الشعوب.

في كل هذا الزخم كان للكلمات وقعها،وللقصائد فعلها في ذوات الشعب وفي عزيمة المجاهدين،وليس لهذا الكلام أية علاقة بالمبالغة أو التضخيم لدور الابداع في مرافقة الثورة التحريرية،فلا يوجد جزائري واحد لم يسمع من والديه أو أجداده حديثا عن واقعة أو معركة وقصة استشهاد إلا ورافقتها أبيات شعرية من"الملحون" أو أغنية تؤرخ لها،فكأنما الأوزان تحفظ الوقائع والأحداث،إذ يخيّل لك أن الشعر لغة التضحيات،ربما لاستدعائه الدائم في سردها ولوصف الويلات والآلام وحجم الدمار والموت الذي مارسته آلة الاحتلال الفرنسي الغاشم في حق الشعب الجزائري،لقد حفظت أبيات الشعر الملحون أحداثا كثيرة من النسيان ورسخت بطولات من الشرف والنيف والفداء فكانت بحق ديوانا للثورة التحريرية المباركة.

هذا الارتباط بين القصيدة والثورة هو ما سأناقشه في هذه الورقة بحثية من خلال قصيدة من الشعر الشعبي تكتب الثورة في منطقة مجاهدة مثل باقي المناطق الجزائرية دونما حد أو استثناء،وهي مدينة برج الغدير جنوب ولاية برج بوعريريج ،والتي احتضنت الثورة وقدمت الشهداء وكذا الشعراء و أذكر منهم الشاعر الشهيد "عبد الكريم العقون" في الشعر الفصيح والشيخ "عبد الحفيظ زواوي" صحاب قصيدة "طاح الغيم"موضوع الدراسة

أولا-حول الشاعروالقصيدة:

1-الشاعر:

هو الشيخ عبد الحفيظ زواوي بن أحمد باي بن الحسين بن الزروق،ويمتد نسبه إلى أبو زكريا يحي بن علي المعروف بالزواوي الولي الفقيه الورع أحد علماء بجاية،ولد الشيخ عبد الحفيظ سنة 1887،بقرية أولاد لعياضي،بالضبط في الشواثرة ببلدية برج الغدير ولاية برج بوعريريج،حيث تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه بكُتاب القرية،ثم تنقل بين عديد المدن الجزائرية،ليحط الرحال مثل أبناء جيله بفرنسا طلبا للعمل،كان في كل تنقلاته وأسفاره ينظم الشعر إذ لم تفارقه القصيدة أين ما حل وارتحل،فكتب عن الغربة والشوق والديار،وأبان عن شعرية فائقة في كتابة الشعر الملحون وبالخصوص فيما اتصل بوصف الوطن وأوضاع الشعب المزرية إبان فترة الاحتلال،وصدح صوته عاليا بقصائد ثائرة تغنّت بالثورة وأبطالها،بعد استقلال الجزائر زار البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج سنة 1967،وافته المنية -رحمه الله-في ربيع 1971 ودفن في قريته الشواثرة خلف مسجد بن الطاهر[1].

ب.القصيدة:

تنوعت أغراض الشعر الشعبي عند الشيخ عبد الحفيظ زواوي حيث كتب في موضوعات شتى من غزل ومديح و فخر وكان للوطنيات حضور قوي في نصوصه الشعرية،فخلّد المآثر والأبطال،وأخذت نصوصه إضافة إلى المحلية بعدا وطنيا ميزه عن نظرائه من شعراء الملحون الذين تغلب عليهم المحلية في الكتابة،إذ أن نصوصه حافلة بذكر الشخصيات الوطنية و زعماء الثورة وأعلام الثقافة و رجال التصوف،ولعل ظاهرة الخروج من دائرة المحلي في الشعر الشعبي عند الشيخ عبد الحفيظ زواوي منح لنصوصه ثقلا ثقافيا ومعرفيا يمكنها من أن تحوز صفة النصوص الشعبية الوطنية الغير غارقة في البعد المحلي،و هنا نؤكد على أنه لا يمكن اعتبار المحلية عيبا في الأدب الشعبي أو حتى الفصيح و الرسمي،فهي خصوصية فرضتها طبيعة اللهجات وتنوعها والجهات واتساعها،إضافة إلى سياسة التحشيد والغلق التي انتهجها العدو الفرنسي في الجزائر مما جعل التواصل بين جهات الوطن عسيرا وغير متاح للجميع عزلا للثورة،وبحثا عن إمكانية حصرها في مناطق معينة،ومن ثم وجدنا جل النصوص الشعبية تعالج قضاياها المحلية،إلا عند بعض الشعراء الذين تشربوا الثقافة والوطنية وكتبوا باللهجات المحلية أمثال الشيخ عبد الحفيظ زواوي،في عدد من قصائده ومنها قصيدة "الحلف الأطلسي"-موضوع الدراسة-والتي كتبها الشيخ عبد الحفيظ فجر الاستقلال كما يشير النص- هذا ما أرجحه-،أو كتبت في السنوات الأخيرة للثورة،مع اشتداد الدعم المالي والدبلوماسي والعسكري لفرنسا من طرف أعضاء الحلف الأطلسي،الذي أنشأ سنة 1949،فقد حصلت فرنسا في بداية الستينات على أسلحة ثقيلة؛مدافع وطائرات،ومدرعات من طرف دول الحلف،وهذا ما نعكس على القوة التدميرية الفرنسية حيث ضاعفت من قصفها وقتلها للمدنيين باستعمال هذه الذخيرة والعتاد الممنوح من طرف الحلف،وعلى كل نقف في النص على وصف لهذه الأحداث والتحولات التي سبقت التحرر،كما نعثر على دلالات تؤكد أن كتابة النص كانت فجر الاستقلال؛من خلال تحديده لسنوات الثورة" **كل ليلة وانهار وقضاها ينزل مدة سبع سنين عدة باكمالــوا**"و ابرازه لمظاهر الاحتفال ورفع الأعلام في مواضع أخرى من النص،ليبقى حديثه عن الحلف الأطلسي من باب إعمال الذاكرة تخليدا لتضحيات الجزائريين وفخرا بالنصر لا على فرنسا فقط بل على الحلف الأطلسي بأكمله،ومن ثم فإن هذا النص عد من الشعر الذي تغنى بالثورة وكتب أمجادها بعد الاستقلال مباشرة في مرحلة تاريخية حالمة وحافلة بالمشاريع والطموحات ما بعد التحررية راوحت بين لحظتين حاسمتين ماض وجب تخليده لأن لا يصيبه النسيان ومستقبل وجب تشيده وتحقيق حلم الشهداء،ولذلك لم تنطفئ جذوة الثورة،ولم تخبوا روحها و لم ينحصر زخمها في النصوص التي أعقبت الاستقلال،فقد كانت عامرة بالحس الثورى والطموح والأمل بالغد المشرق بعد الاستقلال،فبداية الاستقلال في النصوص الشعرية هو امتداد منطقي لقصيدة الثورة أو القصيدة الثائرة كما يصطلح على ذلك العديد من النقاد في الجزائر.

ثانيا-شعرية الثورة،فرش نظري:

قد يُحمل هذا العنوان على سوء الفهم،لما ينتجه من تأويلات ترتبط بمصطلح "الشعرية"بوصفه مفهوما نقديا له حدوده المعرفية،واستعمالاته المخصوصة في النظرية الأدبية؛والتي انطلقت مع "جاكوبسون"في تأكيده

على أن مسعى العلمية لا يتحقق في الدراسات الأدبية إلا عبر التحول إلى دراسة النسق[2]،واستمرت في مباحث وكتابات لعدد كبير من المنظرين،الذين وإن اتفقوا في طبيعة الدراسة التي تبدأ من الداخل وتهتم فقط بتأويل النصوص إلا أنهم تجاوزوا الشعرية السكونية[3] إلى شعريات ديناميكية منفتحة،اسهمت في الحفاظ على الزخم المعرفي لها،ولعل من أهم مرتكزات الشعرية،مفهوم القيمة الجمالية الذي يتيح لها إمكانية الحضور في عدد معتبر من الحقول المعرفية التي تناقش الفهم القيمي للجمال داخل النص أو خارجه،وهذا ما يمنح مرونة وحركية للمفهوم تمكنه من التعامل مع خطابات مختلفة،بعيدا عن المحايثة والانغلاق النسقي،ففي تصور"ميكال دوفران"للشعرية نقف على هذا الفهم الديناميكي المتجاوز،حيث يُقدم الشعرية بعدها مقولة جمالية"**la poétique comme catégorie esthétique**""**بصفة شمولية عامة تستمد مقوماتها من الشعر والشاعر والطبيعة والأشياء على سواء وترتكز على مفهوم ب .فاليري للشعرية(الذي يعيدها إلى أصولها الاشتقاقية المتعلقة بالخلق والإبداع عموما)**"[4]،ضمن هذا التصور يمكنني أن أموضع فكرتي حول "**شعرية الثورة**"قاصدا بذلك النظر إلى الثورة الجزائرية المباركة بما هي أفق حضاري وجمالي منجز في التاريخ تعددت تمثيلاته في الخطابات المختلفة،ومن ضمنها الأدب،وهنا تصبح شعرية الثورة بمثابة الحضور الجمالي للثورة في النصوص ومن بينها قصائد الشعر الشعبي،والتي تعج بالتمثيلات الجمالية للثورة لما لها من امتداد في الوعي الشعبي وقرب من وجدانه،فالشعب الجزائري التحم بثورته وجعل من تضحياته وقودا لها،وكان الفاعل الأساسي فيها،هذه الثورة التي رمّجت الكثير من المفاهيم المغلوطة في العالم،وعدّلت في حركة التاريخ،وقدمت نماذج رائدة من التضحية والالتزام والإيمان بالإنسان وحقه في الحياة والحرية والدفاع عن كرامته ومبادئه كيف ما كان الثمن،لقد كان لهذه الأفكار الثورية الملهمة تأثير ثقافي وحضاري كبير ،واستقبلها المفكرون والفلاسفة والفنانون وأنتجوا من وحيها نصوصا ولوحات جمالية متفردة،فالثورة الجزائرية فتحت أفقا جماليا رحبا ألهم وألهب القرائح،شعرا وسردا،وأذكى جذوة الكتابات التاريخية والفكرية فاجتمعت كل هذه الكتابات والأجناس حول هذا الأفق الجمالي.

إن شعرية الثورة كما أفهما هنا هي ذلك الحضور الجمالي المشكل في القصائد الشعرية الشعبية،والذي تختزنه الجمل الشعرية الملحونة،و دلالات الكلمات العامية،وتكثّفه الأوزان الشعرية والنمط الموسيقي المحلي،فتستحيل النصوص إلى لوحات فنية تعبر بوضوح عن الأفق الجمالي للثورة،وكيف يمكن أن يولد الجميل من رحم الحرب والموت والدم والتهجير والإبادة !

لقد كان لهذه الظروف العسيرة أن ترسم ملامح التضحية والبطولة والصبر،وأن تؤكد على إصرار الشعب في الحفاظ على شخصيته ومبادئه وكرامته،وأمله في الإنعتاق والتحرر من ربقة المحتل الغاشم،وهذا ما منح قصائد الملحون شعرية طافحة لأنها استلهمت من الثورة أبعاد المقاومة والتضحية،وأنتجت نصوصا تمجد الحرية والإنسان في شكل بسيط وبلغة قريبة من الشعب وبأسلوب رصد التفاصيل الدقيقة لمخاض التحرر ومعاناة الانسان فيه،ولحظات الضعف والخوف والأمل والفرح التي تنتابه،هذه الأهواء والتفاصيل هي من خلقت الجمال في الشعر الشعبي،وكانت بمثابة مخزون جمالي للشعر الشعبي غرف منه الشعراء وارتوت قصائدهم.

على نحو أخر لا يمكننا معرفيا أن نجد تناقضا بين الثورة بوصفها عملا سياسيا بالدرجة الأولى،والجمال في تجلياته المختلفة؛فى الشعر والمسرح والنحت والموسيقي وفنون أخرى،ذلك أن العلاقة بين السياسة والفن علاقة تاريخية وراسخة ولم تحدث فيها أي قطيعة،فقد تُبدى فنون طابعها السياسي وقد تواريه أخرى،حسب طبيعة الفن والمرحلة،وهذا ما يؤكده علماء اجتماع الفن،وعلم الجمالية،حيث تقول"جانيت وولف""**وربما يكون الفن بالطبع سياسيا على نحو واضح ومقصود،وغالبا ما يضع الفنانون والكتاب أعمالهم في خدمة الثورات السياسية،وفي نفس الوقت يستحدثون جماليات جديدة تلائم نقدهم الأيديولوجي والسياسي لكل من المجتمع المسيطر والأشكال والنظريات الفنية البالية**"[5] فالمعطى الجمالي للفن إن على مستوى الشكل أو المضمون،هو معطى سياسي في أحد أبعاده،يمارس نقده ورفضه لما هو موجود ويقدم بدائله المناسبة التي تذكى شرارة الثورة والمقاومة،وتمنح المعنى لها وهذا ما ينطبق على كل أشكال الفن ومستوياته،فلا يمكننا أن نحصر هذه التصورات النظرية في نطاق الأدب النخبوي و الفن الرسمي فقط،فهذا ضرب من الاختزال والسطحية التي مارسها الخطاب الثقافي الرسمي على الفنون الشعبية،من خلال تهمشيها واتهامها بالبذاءة والبعد عن المعايير القيمية التي توجه النصوص الكبرى وتتحكم في تمضظهرات الجمال في الفنون والمجتمعات،فالأدب الشعبي هو الحاضنة الطبيعية والملائمة لجميع الحركات التحررية ذات المنشأ الشعبي مثل الثورة الجزائرية التي لا يمكن أن نعثر فيها على أي انتماء لأيديولوجيا واضحة أو تيار فكرى بارز في تلك المرحلة،فهي نتاج لتحول وحركة أرادها وأقرها الشعب فقط وإن كانت تأثرت ببعض التوجهات واستفادت من بعض التيارات محليا وعالميا وهذا شيء طبيعي،وعليه يمكن القول أن الشعر الشعبي امتزج بهذه العزيمة السياسية والروح التحررية للشعب الجزائري،فكانت نصوصه ذات منحى جمالي واضح رافق المسيرة التحررية ومنحها الكثير من الدعم النفسي والحماسة الجماهيرية،وكان على وعي سياسي ناضج بحقيقة الثورة والتحرر"**فمن الصعب أن يكون العمل صحيحا سياسيا إلا إذا كان صحيحا جماليا أيضا**" كما ترى"جانيت وولف"[6]،وهذا ما جسدته القصائد الشعرية الشعبية في مرحلة الثورة التحريرية ،فقد صنعت الوعي السياسي عند الشعب وأوجدت قناة تواصلية مشفرة بينه وبين الرجال الثورة في الجبل،وامتلكت زمام القول والقص تحضيرا للتحرير الكامل للأرض وتقويض الاحتلال[7]،فكان الشعر الشعبي في الثورة التحريرية المباركة بمثابة الوقود لها اشعل لهب الجمال وخط صفحات الجلال.

ضمن هذا الفهم لشعرية الثورة أحاول قراءة هذه قصيدة من الشعر الشعبي"**الحلف الأطلسي**"لشيخ عبد الحفيظ زواوي في مقاربة تكاملية،مستفيدا من عدد من التصورات النقدية التي أجدها مناسبة لهذا المقام مستعيرا ما عبر عن "تيرى إجلتون"حين قال"**إن أحد المعاني التى نريدها بأي عمل"أدبي"هو ذلك المعنى الذي ينظر به إلى ما عبر عنه في ضوء الأسلوب الذي عبر به**"[8]،وهذا ما سأحاول أن أقف عليه في قراءة هذا النص.

ثالثا-اللغة العامية حارسة الهوية:

يتفق كل المهتمين بمسائل الثقافة واللغة والهوية على العلاقة التلازمية بين أفعال اللغة وأفعال الهوية،فلا يمكننا أن نتصور هوية جماعة ما خارج استعمالاتها اللغوية،أو ضمن نسق لغوي غريب

عنهم"**فالترابط بين اللغة والهوية هو دائما ترابط قوي،بحيث أن سمة واحدة لاستعمال اللغة تكفى لتعين علاقة شخص ما بجماعة ما**"[9] ومن ثم تصبح اللغة هي القلعة الحامية للهوية خاصة في المراحل التاريخية التي تكون الأمم محتلة فيها،وهذا حال الأمة الجزائرية في الفترة الاحتلال الاستيطاني الفرنسي،والذي حارب الكيان الهوياتي الجزائري بالعمل على القضاء على الوجود اللغوي للغة العربية وإفراغ الدين الاسلامي من الداخل عبر مجموعة من الاستراتيجيات،فقد نوعت فرنسا في جهاتها واعتبرت أن وجودها الدائم في أرض الجزائر يرتبط بمدى قدرتها على تفكيك الأمة الجزائرية وتغريبها حضاريا و ثقافيا ولغويا ،وهذا ما ناضل ضده أطياف من الشعب الجزائري قبل اندلاع الثورة وفي خضمها،فكان لحزب الشعب وجمعية العلماء المسلمين وهيأت أخرى أدوار ثقافية مشرقة،في مكافحة الفرنسة وصناعاتها الثقافية المشوهة.

ونجد في المدونة الشعر الشعبي وإن كانت شفهية وبلهجات عامية مختلفة ما أسهم في الحفاظ على الهوية و اللغة العربية الفصيحة إبان فترة الاحتلال من خلال ترسيخ القيم الثقافية والاجتماعية الوطنية المتناقلة بالسماع [10] وكذا توظيف العبارات والجمل العربية الفصيحة في الاستعمال الشعري،وهذا ما غفل عنه الكثير وتم اهماله حسب المفكر الجزائري"مصطفى الأشرف"في كتابه الهام"الجزائر الأمة والمجتمع"حيث يعتبر أن احتقار المتعلمين بالفصحى للغات الشعبية عرضها للفساد وفقدان صفائها إلا في بعض البوادي[11]معتبرا أنها "**أداة طيعة للتفاهم في المجتمع الجزائري ووسيلة ممتازة بواسطتها تكتمل الثقافة القومية إذ تحتوى على مجال هام هو مجال التعبير الشفوي...فاستعمال هذه اللغات الشعبية(العربية الدارجة و الأمازيغية)قد ساهم أكثر مما يظن البعض في الماضى البعيد وسوف يساهم على مدى الأيام والسنين في غرس الملكة اللغوية بالنسبة لمن يتعلم الفصحى...علما بأن اللغات الشعبية قامت إلى جانب الفصحى بدور كبير يتمثل في ارهاف الحس المبدع للشعر وتنمية الخيال الخلاق للرواية وتربية الميول للأمثال والحكم المستمدة من تجارب الأيام**"[12]،لا يخفى الأستاذ الأشرف في هذا المقام أسفه الشديد لما ألت إليه اللغات الشعبية من انحطاط قد لا يظهر جليا بحكم طابعها الشفوي وربما هذا ما جعل الناس لا يهتمون لذلك[13] ،فقد فقدت الكثير من نقائها ومستوياتها القريبة من الفصحى والتى كانت بمثابة الآلية الناجحة حُفظت بها اللغة العربية الفصحى من النسيان من خلال تداولها عبر الشعر الشعبي المصاغ بالدارجة الجزائرية،إذ يحدد أحد الباحثين في أطروحته حول الشعر الملحون الديني في الجزائر بين(1954/1830)أربع مستويات للغة في الشعر الملحون؛اللغة المتفاصحة،وهي قريبة جدا من الفصحى،واللغة العامية،والتي تستعمل اللهجات الدارجة المهذبة،واللغة البدوية،وتجمع بين ما هو متفاصح وعامي وقاموسها نابع من البيئة التى أنتجته،ومستوى رابع فيه مزيج من الترسبات للغات التركية والفرنسية[14]،وبالعودة إلى القصيدة محل المقاربة"الحلف الأطلسي"نجد المستوى اللغوى الأقرب إلى الفصحى وإن شابته كلمة أو اثنتين بلغة غير العربية من أصل(31) واحد وثلاثين بيتا شعريا يمكن القول أنها كانت بكلمات فصيحة وإن نطقت بالدارجة فكان الأصل فصيحا والنطق مشوبا باللحن،حيث إنك تعثر في هذا النص على قاموس عربي فصيح و باذخ في مفرداته وثرى في جزالة استعمالاته،يقول الشيخ عبد الحفيظ:

"بن جدة نعت نمر كان اتهول ولا قسور داير به اشبالوا
امكوش غضبان في الخرزة يقتل ويح اللي يصفاه يوفي مجالوا
كم من ضابط راح خلاه مجندل وين وقيوا وين الكلاب امثالوا
شربهم كيسان مرين من الذل خبلهم تخبال ريح مع اسبالوا
واخباروا في كل بيروا تتسجل روع الوحوش مكان امثالوا"

هنا يصف الشاعر أحد أبطال ثورة التحرير في منطقته**"محمد بن جدة"**(قائد كتيبة في جيش التحرير الوطني وأحد أبطال معركة قرن الكبش التابعة للولاية التاريخية الأولى،الأوراس)حيث نقف في هذا المقطع على استعمالات لغوية فصيحة جدا فكلمات مثل(قسور/أسد، مجندل/مصروع) تُصنف ضمن القاموس اللغوي الكلاسيكي،المنتشر في قصائد الشعر الجاهلي وما اعقبها ،وربما يكون توظيفها من طرف الشيخ عبد الحفيظ،هو استثمار وتناص مع معجم القران الكريم،وهو انتقاء جيد منه وصناعة بلاغية حاذقة وتكثيف لصورة طافحة بالشعرية قائمت على سلامة لغوية أقرب ما تكون إلى اللغة الفصحى،والاستعمال الغير عربي في هذه القصيدة كان في كلمتين تدخلان في السياق التداولي في مرحلة الثورة للكلمات والمصطلحات المتعلقة بالأسماء الأجنبية لقادة جيش الاحتلال أو أسماء الأمكنة والعتاد والأسلحة فقط،حيث وظّف الشاعر كلمتي"وقيوا"وهو اسم ضابط فرنسي،و"بيروا"وهو اسم مكتب التحقيق العسكري الفرنسي،فلا نجد غير هاتين الكلمتين في هذا النص الطويل نسبيا،وهذا مؤشر على الصفاء اللغوي في شعر الشيخ عبد الحفيظ زواوي وهو حكم لا يمكن تعويمه على كل الشعر الشعبي في مرحلة الثورة، كما لا يمكن اهماله واعتباره استثناء،لأنا نجد في الكثير من القصائد الملحونة وفي كل المناطق الوطنية هذا الصفاء اللغوي الذي أشرت إليه.

ويمكن تقديم أمثلة شعرية أخرى من القصيدة حتى نؤكد على هذا المستوى اللغوي المختلف الذي امازت به كتابات الشيخ عبد الحفيظ زواوي،يقول في مقطع أخر من هذه القصيدة :

كل ليلة وانهار وقضاها ينزل مدة سبع سنين عدة باكمالوا
العسكر جراد على الوطان نزل والثمر المشتول ياكل في فالوا
ملعراش معمرة لحباس اكل ما تعرف من مات من اللي مزالوا
وكته يارب الساعة تتبدل يا عظيم الشان جل جلالوا
اتوسلنا ليك بالنبي المرسل وفق يا ربي الشاعر لقوالوا
شتت جيش الروم بالهزمة يرحل ما يبقي تثير من شين افعالوا

وهنا نجد النفس الشعري في هذا المقطع يتناغم مع المقطع السابق من حيث أنه يحافظ على المستوى اللغوي ذاته في استعمال المصطلحات الفصيحة،وتوظيف الصيغ اللغوية المشهورة في الشعر العربي،وإعادة انتاج جماليات الشعر العربي الكلاسيكي.

أصل إلى القول أن التداول الواسع الذي حضي به الشعر الشعبي في مرحلة الثورة اسهم في الحفاظ على اللغة العربية الفصيحة في ألسنة الجماهير التي استقبلت هذه النصوص الشعرية بوصفها نصوصا تمتلك جمالية خاصة نابعة من صميم الثورة التحريرية.

رابعا-القصيدة الشعبية ذاكرة الحرية:

تطرح مشكلة التأريخ للأدب الشعبي صعوبة في تحليل النصوص ومحاولة تنزيلها ضمن سياقاتها الزمنية،خاصة في النصوص التي ترتبط بأحداث تاريخية محددة[15]،مثل هذا النص"الحلف الأطلسي"فقد أشرت في مقدمة المقال إلى أن بعض الجمل الشعرية في القصيدة تومئ إلى أن القصيدة منظومة في مرحلة ما بعد الاستقلال وربما في السنوات الأولى لذلك،فالشيخ عبد الحفيظ في هذا النص يحاول أن يشتغل على الذاكرة الثورية التي تشكل حاضنة ثقافية للشعر الشعبي"**الذي نظر إلى الثورة على أنها حدث كبير للتحرر من ربقة الاستعمار البغيض ومن قمع القوانين الاستثنائية الجائرة(الانيجينا)والانتقام من عهد الإهانة والمذلة وسلب الأرض والاعتداء على العرض**"[16]،هذه المركزية الوجودية للثورة جعلت الشعراء الشعبيين ينتمون إليها ويصدرون عنها في كتاباتهم ،ولا أبالغ حين أقول أنها تحولت إلى موضوع أوحد لقول الشعر بالنسبة لهم،فهي الملهم والمسيس [17]،ومن ثم جعلوا من نصوصهم أرشيفا ثقافيا وتراثا لها كما يرى المؤرخ"أبو القاسم سعد الله"في تاريخه الثقافي،حيث يمكن أن نسجل هنا موقفا متباينا لهذا المؤرخ من الشعر الشعبي؛ففي الجزء الثالث،من "تاريخ الجزائر الثقافي"نجده يعتبر الشعر الشعبي نتاج لتراجع الثقافة الجزائرية في المرحلة ما بين"1830/1500"فهو"**من الناحية الجدلية المحضة ضد الثقافة ودليل على انحطاطها**"[18]وهنا ينظر الشيخ"سعد الله"إلى أن الشعر الشعبي هو الشكل الأدبي للانحطاط الثقافي في تلك المرحلة،فسياسات الشكل كما يرى"إجلتون" تمتلك القدرة على توصيف المراحل بدقة،بيد أنه في الجزء العاشر الذي يخص المرحلة ما بين"1962/1954"يمنح للشعر الشعبي مكانة مرموقة في ثقافة المقاومة،ويعتبره صنو الشعر الفصيح في "**احتضان الثورة باعتبارها حدثا وطنيا ضخما له مدلوله التاريخي والمستقبلي وله مغزاه في تثبيت الهوية واسترجاع الاستقلال**"[19]أجد في هذا التحوّل في الموقف من طرف مؤرخ مرموق عارف بأدق خصوصيات المشهد الثقافي في الجزائر،دليلا على مكانة ودور الشعر الشعبي في بعث الثورة وزرع الإيمان الجماهيري بالقضية الوطنية،من خلال استلهامها وتخليد بطولاتها، فالشيخ"أبو القاسم سعد الله"لحساسيته التاريخية وقراءته المستنيرة للثقافة الجزائرية عبر العصور أحس بالتحول الجذرى للشعر الشعب من نصوص شعرية شفوية ترفيهية بائسة ولغة منحطة،إلى قصائد مقاومة لها مشروع وطني وتمتلك شرط الوعي والحضور الجمالي ،لتأسس ذاكرة للحرية وأرشيفا جماليا للثورة.

قد يختلف كثير من الباحثين في قدرة الثقافة الشعبية على انتاج نصوص وفن عظيم[20]،وذلك لمحدودية أساليبها،لا كن لا يمكنهم إنكار قدرتها على التغلغل في عمق الشعب وتفاعل مع كل طبقاته،بما يسمح لها أن

تحوز على المشروعية والمصداقية الجماهيرية التي تمكنها من التأثير فيه عبر أشكالها المختلفة،فالشعر الشعبي في مرحلة الكولونيالية وما بعدها استطاع أن يصدّر الثورة إلى الشعب،ونجح بعد التحرر في توطينها في النفوس والتأسيس لذاكرة شفوية متوارثة للحرية في عموم الشعب الجزائري وبأطيافه المختلفة،فقد 'قالها الآباء،وحفظها الأبناء،وخلدها الأحفاد فهي ذاكرة أبدية للحرية،فهذه القصيدة موضوع الدراسة"الحلف الأطلسي"مثال على قدرة الشعر الشعبي في ترسيخ التنشئة الثورية في الأجيال المتعاقبة في الجزائر،لأن القارئ أو المستمع البسيط لها يتخلق عنده انطباع صادق بحجم التضحيات وعظمة البطولات التي صنعتها الثورة التحريرية،عبر المزج المبدع بين سرد الوقائع ووصف ظروف الشعب ومعاناته وتسجيل صمود الأبطال ومآثرهم ،فالثورة كموضوع مركزي أوجد خيطا ناظما ووحدة العضوية خلقت التشاكل بين عناصر فكانت جميع الأفكار والموضوعات خادمة لها ،فهناك إيقاع خفي تدركه بين الجمل الشعرية وفي الكلمات يبعث على الارتباط الوجداني بالقصيدة،يبذر فيك انتماء ويذكى جذوة الحرية.

لقد كان الشعر الشعبي بحق ذاكرة للحرية كتبت الثورة بأسلوب بانورامي يجعلك تسمع وتشاهد الثورة،بل تعيشها في أدق تفاصيلها النضالية والأخلاقية والجمالية.

خاتمة:

تكثيفا لما سبق يمكننا القول بأن الشعر الشعبي في الجزائر في مرحلة الثورة التحريرية قائم بالأدوار التاريخية والثقافية المنوطة به وهذا ما وقفنا عليه في قصيدة"الحلف الأطلسي"لـ"الشيخ عبد الحفيظ زواوي" ومن أهم النتائج المتوصل إليها نذكر:

-جمع الشعر الشعبي بين الخصائص الجمالية والخطاب المقاوم الذي ليس حكرا فقط على الشعر الفصح.

-حافظ الشعر الشعبي على مقومات الهوية والثواب الوطنية الجزائرية واستطاع غرسها في الحاضنة الشعبية.

-غياب الشعر الشعبي على المستوى التداول الأكاديمي والتعليمي في مرحلة ما بعد الاستقلال اسهم في تراجعه وسقوطه في الابتذال.

-ارتباط الشعر الشعبي بالفئات الشعبية المختلفة وتغلغله في العمق الاجتماعي منحه مشروعية ومصداقية مكنته من اشعال جذوة الثورة والتحرر في أوساط الشعب الجزائري.

-قصائد الشيخ عبد الحفيظ زواوي تصنف ضمن الشعر الشعبي المتفاصح؛حيث نقف في نصوصه على استعمال مكثف للمعجم الفصيح.

هوامش وإحالات المقال

[1] الشاعر عبد الحيظ زواوي،مجلة الغدير،مجلة جزائرية إلكترونية مستقلة،رابط:-https://www.elghadir.net/2022/07/ramadan-khababa-mosque-algerie-dachra.html

[2] تزفينان تودروف،نظرية الأجناس الأدبية،تر:عبد الرحمن بوعلي،دار نينوى،سورية،ط1، 2016،ص114.

[3] محمد بوعزة،تأويل النصوص،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،لبنان،ط1، 2018،ص54.

[4] يوسف وغليسي،إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد،الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الاختلاف،لبنان،الجزائر،ط1 ،2008،ص329.

[5] جانيت وولف،علم الجمالية وعلم اجتماع الفن،تر:تريز عبد المسيح،خالد حسن،المجلس الأعلى للثقافة،مصر،ط1 ،2000،ص50

[6] المرجع نفسه،ص51.

[7] بيل أشكروفت وأخرون،دراسات ما بعد الكولونيالية،تر:أحمد الروبي وأخرون،المركز القومي للترجمة،ط1، 2010،ص11.

[8] تيرى ايجلتون،كيف نقرأ الأدب،تر:محمد درويش،الدار العربية للعلوم ناشرون،لبنان،ط1، 2013،ص17

[9] فلوريان كولماس،دليل السوسيو لسانيات،تر:خالد الأشهب وماجدولين النهيبي،المنظمة العربية للترجمة،مركز دراسات الوحدة العربية،لبنان،ط1، 2009،ص683.

[10] مصطفى الأشرف،الجزائر الأمة والمجتمع،تر:حنفي بن عيسى،دار القصبة،ط1، 2007،ص430.

[11] المرجع نفسه،432.

[12] نفسه، ص 435/432.

[13] نفسه،ص435..

[14] عبد القادر فطيس،الشعر الملحون الديني في الجزائر،1954/1830،أطروحة دكتوراه مخطوط،جامعة الجزائر،2009/2008.

[15] يوري سوكولوق،الفولكلور قضاياه وتاريخه،تر:حلمي شعراوي و عبد الحميد حواس،مكتبة الدراسات الشعبية،مصر،ط2، 2000،ص32.

[16] أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،دار البصائر، الجزائر،ط خ،ج10،ص547/546.

[17] إريك هوبز باوم،أزمنة متصدعة،الثقافة والمجتمع في القرن العشرين،تر:سهام عبد السلام،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسة،قطر،ط1، 2015،ص349.

[18] أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،دار البصائر، الجزائر،ط خ،ج3،ص311.

[19] المرجع نفسه،ج10،ص546.

[20] هارلمبس وهولبورن،سوسيولوجيا الثقافة والهوية،تر:حاتم حميد محسن،دار كيوان،سورية،ط1، 2010،ص49.

قائمة المراجع:

أولا-الكتب:

1. أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،دار البصائر، الجزائر،ط خ،ج3،ج10.
2. إريك هوبز باوم،أزمنة متصدعة،الثقافة والمجتمع في القرن العشرين،تر:سهام عبد السلام،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسة،قطر،ط1، 2015.
3. بيل أشكروفت وأخرون،دراسات ما بعد الكولونيالية،تر:أحمد الروبي وأخرون،المركز القومي للترجمة،ط1، 2010.
4. تزفينان تودروف،نظرية الأجناس الأدبية،تر:عبد الرحمن بوعلي،دار نينوى،سورية،ط1، 2016.
5. تيرى ايجلتون،كيف نقرأ الأدب،تر:محمد درويش،الدار العربية للعلوم ناشرون،لبنان،ط1، 2013،ص17
6. جانيت وولف،علم الجمالية وعلم اجتماع الفن،تر:تريز عبد المسيح،خالد حسن،المجلس الأعلى للثقافة،مصر،ط1 ،2000.
7. عبد القادر فطيس،الشعر الملحون الديني في الجزائر،1954/1830،أطروحة دكتوراه مخطوط،جامعة الجزائر،2009/2008.
8. فلوريان كولماس،دليل السوسيو لسانيات،تر:خالد الأشهب وماجدولين النهيبي،المنظمة العربية للترجمة،مركز دراسات الوحدة العربية،لبنان،ط1، 2009.
9. محمد بوعزة،تأويل النصوص،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،لبنان،ط1، 2018.
10. مصطفى الأشرف،الجزائر الأمة والمجتمع،تر:حنفي بن عيسى،دار القصبة،ط1، 2007.[20]
11. هارلمبس وهولبورن،سوسيولوجيا الثقافة والهوية،تر:حاتم حميد محسن،دار كيوان،سورية،ط1، 2010.
12. يوري سوكولوق،الفولكلور قضاياه وتاريخه،تر:حلمي شعراوي و عبد الحميد حواس،مكتبة الدراسات الشعبية،مصر،ط2، 2000.
13. يوسف وغليسي،إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد،الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الاختلاف،لبنان،الجزائر،ط1 ،2008.

ثانيا-المجلات:

14. مجلة الغدير،جزائرية إلكترونية مستقلة،رابط:https://www.elghadir.net/2022/07/ramadan-khababa-mosque-algerie-dachra.html